لعبة الشوافين والمشوفين

ارتأيت، حيال صعوبة النفاذ إلى بعض صميم الحياة الأمريكية فى رحلة خاطفة، أن ألجأ إلى انطباعات الروائيين المؤسسة على تصوير ناقد، وخاصة بعد أن قرأت هناك كتاباً جادًّا - وليس رواية - أقلق راحتى، لما جاء به من وصف لما سماه المؤلف «الدبلوماسية السرية» لحكومة الولايات المتحدة، بعد كل ما عرفت عن فضيحة ووترجيت التى ما فتئت عفونتها تزكم أنوف الشعب الأمريكى. صور صاحب كتاب الدبلوماسية السرية بطريقة أشبه بالقصص البوليسى - وهو يروى فيما يزعم وقائع صحيحة - كيف تقوم الزعامات ببعض البلاد المتخلفة، عندما تحاول «الدبلوماسية السرية» ابعاد تلك البلاد عن المحظور الاجتماعى، (طالع: الخطر الشيوعى).

قرأت فى هذا الكتاب المعقد العجيب كيف يعد «الدبلوماسيون» المختفون الحُكّامَ فى تلك البلاد. وهم فى هذا أشبه بفنان الأراجوز، يعد شخوصه الخشبية ذات الأسمال لعرضها فى جوسقه، ويجعلها تتكلم من بطنه حسب سرد قصتها.

تقززت نفسى من هذه الإجراءات التى إن صحت - وأشك فى تمثيلها واقعًا بعينه - فاللعنة على من يقومون بأمثال تلك الألاعيب، وعلى من شاركوا أو تحركوا بفعلها عن إدراك أو غير إدراك.

لا شك أن بلوغ القمة فى عالم «الإنجازات الحرة»، والاندفاع فى

طريق الحضارة الآلية، فيما يوصف بالتكنولوجيا، والتكنوقراطية، قد خلق مشاكل اجتماعية خاصة بمجتمع الرفاهية، القائم على تضخم فى الصناعة، والاستهلاك ولقد طالعت صورة جانبية، خيالية، فى قصة وقعت بين يدى صدفة فى خلال انتقالاتى. قلبّت صفحاتها متعجلا دون اهتمام كبير، وأعدتها لصاحبها بعد الإلمام بفكرتها. وإذْ بى ألتقى بتلك القصة مترجمة إلى الفرنسية، ونشرت فى أثناء إقامتى بباريس بعد انتهاء رحلتى الأمريكية، فلم أعْن باقتناء الترجمة، مكتفيًا بما كتب عنها النقاد فى الصحف والمجلات الفرنسية.

كتاب الدبلوماسية المتخفية يزعم أنه يصف وقائع حدثت. أما القصة فمن بنات أفكار مؤلفها، يصور لعبة اجتماعية لا سياسية، ولا شأن لها بدول متخفية بل بالمجتمع الأمريكى ذاته فى المدن الضخمة المتخمة. كاتبها رجل من أصل بلغارى أمريكى التبعية اسمه أزى (على وزن عزى) أبراهامى. حظيت القصة لدى ظهورها سنة ١٩٧٢ بإعجاب اثنين من أشهر النقاد الأمريكيين (مارشال ماك لوهان، وأنطونى برجى)، على الرغم من أنها تنضوى تحت مؤلفات بعض اليهود الأمريكيين الذين درجوا على النقد القاسى للنهج الأمريكى فى الحياة (أمريكان واى أف لايف). وهذا القصص الأمريكى المعنى بما يوصف بأزمة الحضارة الصناعية اتخذ مجراه فى تيارين: تيار الروائى دوس باسوس، وزميله باروز (راجع مقالا عن رواية للأول فى إعداد السنة الأولى لمجلة «المجلة»)، وفيها يفتت الكاتب جسم السرد الروائى، رمزًا إلى تفكك المجتمع. والتيار الآخر يستعير أسلوب القصة الفلسفية تتندر باختلال المجتمع وتضخمه. وقصة إزى أبراهامى وعنوانها «لعبة المجمعات السكنية» تنهج الأسلوب الأخير.

أمريكى من الطبقة الوسطى، لا يحدد المؤلف عمره ولا اسمه يعيش بين الزوجة «خميرة العكننة»، والتليفزيون فى شقته بتلك المجمعات التى تشبه علب الكبريت أو خلايا النحل وتبنى لأوساط الناس فى بلوكات شاهقة تتواجه حول باحة مزروعة (ربما)، هى متنفس الآلاف من سكانها.

يضيق الرجل بشعور المحكوم عليه بنمط واحد فى الحياة، لا يتغير بين مقر عمله، ومسكنه، وتليفزيونه الملون، وسريره بالإضافة إلى تعليقات زوجته.

يخرج ذات ليلة إلى الطنف يتأمل أمامه عن بعد أو قرب، مئات النوافذ، تداولها الإضاءة والإظلام، فيرى وراءها «عالم الآخرين». ما أشبه المنظر بالصندوق الآلى (الجوك بوكس) الذى تحتويه مقاهى أوربا وأمريكا، ويعرف فيما أظن بالبلياردو الكهربائى.

يحدث نفسه وهو يحدد بصره إلى نافذة فيقول: «إذا أطفئ نور النافذة الثالثة من الدور الثانى فى البلوك حرف د، قبل عشر ثوان فإنى أهجر زوجتى. ولم يطفأ النور، ولا هجر العقيلة، بل اخترع «لعبة المجمعات السكنية، فمن يرى زنجيًّا فى إحدى الشقق يكسب ١٥ بنطاً (لقلة الزنوج فى تلك المجمعات)، ومن يكتشف خلوة شرعية يكسب ٣٢ بنطاً، ومن يرى أكوار يوم سمك أحمر يكسب ٦ أبناط. أما من يشهد مكنسة كهربائية (منظرًا معتادًا) يخسر ٧.

وتبلغ خسارته ٧٣ بنطاً إذا رأى أمرأة عارية (منظرًا دارجًا معتادًا). وبهذا اكتشف «شواف البلكون» لعبة أكثر إثارة من سخف التليفزيون. لعبة منزلية أنيسة، تشاركه فيها العقيلة، فتعقل لسانها عنه ولو قليلا.

لا حاجة لمن يمارسها إلا إلى لوحة حساب، ومنظارين مقربين. ينظر اللاعب المخترع إلى مئات النوافذ أمامه. ويبدأ لعبة الكشف، وتسجل الزوجة حقه من النقط حسب القائمة التى رصداها مقدماً. ويسجل هو للزوجة حسابها. والمفروض - كما ذكرت - أنه كلما كان المنظر نادراً غير معتاد ارتفع رصيد النقط: أسرة من الزنوج: ١٥ بنطاً، تليفزيون مطفأ: ١٢ بنطًا خلوة شرعية: ٣٢. رجل يقرأ شعراً: ٦٣: أما من يكتشف قارئًا أو قارئة لرواية من روايات جيمس جوين، أو مارسيل بروست، فالشواف يكسب نهائيًا. وحساب السالب: امرأة متجردة يخسر الشواف ٧٣ بنطاً، مكتسة كهربائية يخسر ٧ أبناط... إلخ.

حل الوئام بين الزوجين بفضل اللعبة الشيقة التى محت على الأقل التليفزيون من حياتها. ولكن اللعبة أثارت الرعب وسط السكان: فمن هؤلاء الجيران يباشرون مراقبتنا عيانًا بيانًا دون خجل، أو محاولة الاختفاء. ماذا يراقبون؟ أهُمْ من رجال الشرطة السرية الذين تبثهم مصلحة الضرائب، مثلا. أم هم من «الشوافين» الملحوسين بالجنس «وكلما سدر الزوجان فى غيهما الشاذ، ارتفعت درجة القلق، إلى أن ضم السكان شملهم لتبادل الرأى فيما يصنعون ليوقفوا هذا الكشف عن العورات. وينتهى الأمر إلى الشرطة، والتحقيق الذى لا يسفر عن شيء. فلا مؤاخذة على لعبة التسالى بين زوجين ضاقا ذرعًا بالعيشة وبالتليفزيون.

لعبة التسالى. والله فكرة! وانتشرت لعبة الشوافين بين آلاف السكان فى مئات المجمعات ذات الساحة المتوسطة، أو التى تتواجه فى الشوارع الصغيرة. وإذا كانت اللعبة واحدة فى فكرتها، فليس معنى هذا التوحيد فى

التقدير . وقد اتضح لخيال المؤلف النقادة اتجاه الأغلبية إلى أن الظافر فى اللعبة لا يكتشف قارئ بروست ، بل من يسعده الحظ بالكشف عن ... قارئ أو قارئة .. للكتاب المقدس . كذا ! .

ويتطرق المؤلف ازى أبراهامى إلى فلسفة اللعبة ، وهى محاولة الفرد والمجموع التخلص من رتابة الحياة ، وقلة طعمها ، والخروج عن « القطيع » متميزاً عن الجماعة . فقد تحول سكان المجمعات إلى « شوافين ومشوفين » ، كل يحاول الظهور على الآخرين ليكسب فى لعبة « الاستاندنج » ، وهو التميز الاجتماعى ، كما حاول فى مظهر حياته وملبسه وطعامه ، ولهوه وركوبته .. وتليفزيونه الملون ، وغير هذا من الوسائل التى لا تعد ولا تحصى فى المجتمع الاستهلاكى .

وتفقد لعبة الشوافين سحرها ، وإسعادها للناس ، وبالتالى أثرها العلاجى لمجتمع مصاب بالتبرم ، والحساسية الاجتماعية ، فى حضارة البلف ، والمظاهر الخداعة ، وكل ما ينتهى بهم إلى الإخفاق درجة تفوق الاحتمال ضجيجًا ، والاجهاض .

قصة معاصرة ، فيها مسيس من القصص الفلسفى الساخر ، ينقد بعض مظاهر الحياة الأمريكية ، وبالأولى حياة المجتمعات التكنولوجية الاستهلاكية ، ويصور حياة « التشوف » لمجتمع كسيح الحياة العاطفية التى لا تمتد إلى أطول من ذراعه . فهو يقول لنا : تأملوا فترينات الأفنيو الخامس ، وأرصفته الواسعة ، ملتقى ومسار المجتمع « الشواف » الباحث عما يميزه فيما إذا اقتنى بعض ما يشاهده فى فخامة أضواء الفترينات . هلا يتساءل رجل البلكون عن الحل الحقيقى لحياته ؟ أهو الهروب من المدينة العملاقة إلى أرباضها ، بل إلى الفضاء الفسيح حولها ، ليشغل نفسه

« بتعهد حديقته » على حد قول فولتير . هل الحضارة شيء أكثر من أن يعنى الإنسان بزرعه وجنيه وحصاده .. وبأزهار الحياة ؟ .

حاشية : عرفت بعد كتابة هذا أن الحكومة الأمريكية تشجع منذ عام ١٩٤٥ بناء الفيلات خارج المدن . وقد أدى هذا إلى أن شركات النقل العام لا تستطيع أن تؤدى مهمتها دون خسائر كبيرة . فكل هؤلاء السكان المنتشرين فى خلاء واسع مشتت ، بعيد عن المدينة ، لا يهمهم أمر النقل العام ، ولهم فى سيارتهم الخاصة . ثم علمت بعد هذا من خبر قرأته ، أن الرئيس جيرالدفورد تقدم بقانون مالى يخصص مبلغ ١٥ بليون دولار لمساعدة شركات النقل المشترك فى المدن الأمريكية على مدى السنوات الست القادمة ، لأن هذه الشركات فى طريقها إلى الإفلاس العاجل ، وقد نقصت نسبة من يستعمل أتوبيساتها من ١٦ فى المائة عام ١٩٥٠ إلى ٤ فى المائة سنة ١٩٧١ ، فى حين ازدحمت شوارع وسط المدينة (داون تاون) بالسيارات الخاصة والتاكسى إلى درجة تفوق الاحتمال ، ضجيجًا وإفسادًا للجو .

صورة مشرقة لحياة صحفى أمريكى

ليس من الإنصاف الوقوف عند تصوير ازى أبراهامى، فى لعبة «الشوافين والمشوفين» لعيب من عيوب الحياة الأمريكية، وما أكثرها، علماً بأن الأمريكان وأدباءهم على الخصوص، لا يقصرون بل هم يتمادون فى الكشف عنها. وشاءت المصادفة، بعد الانتهاء من مقالى السابق بباريس، أن تنعى شركات الأنباء العالمية الصحفى الأمريكى الكبير وولتر ليمان. توفى فى ١٤ ديسمبر ١٩٧٤، وقد بلغ الخامسة والثمانين. ومجرد سرد سريع لحياة هذا المعاصر النابه، تعطينا صورة نموذجية للنخبة الممتازة فى مجتمع الولايات المتحدة.

كان وولتر ليمان مؤسسة قومية، وضع أرشيفه الخاص فى قسم المخطوطات بجامعة «ييل». لعب الرجل دوراً كبيراً فى الحياة الفكرية الأمريكية، لم يبرز فيه بكفاح الأكتاف فى مجتمع المنافسة واللكم تحت الحزام، ولكن بحق ألمعيته وذكائه، وصدق نظره. اكتشفه الفيلسوف وليام جيمس «شقيق الروائى الشهير» عندما طالع مصادفة، وفى العام الأخير من حياته «١٩١١» مقالا للطالب وولتر ليمان فى الصحيفة الشهرية لجامعة هارفارد.

ولد ليمان عام ١٨٨٩ من أبوين ثريين آل ثقافة وعقلانية، منحدرين من نسل يهود ألمان هاجروا قديماً فيما يوصف «بالهجرة الألمانية اليهودية المحترمة، ويبدو أنه لا اليهودية ولا أى دين آخر، لعبت دوراً فى تكوين

الشاب وولتر، وقد تلقى التربية «الهيومانية» التى يحصلها أبناء الطبقة الميسرة. التحق بجامعة هارفارد المتفتحة لكل الآراء. وهناك تعلم على وليام جيمس والفيلسوف الإسبانى سانتيانا، والاشتراكى البريطانى تشارلس إليوت. فنشأ الفتى حساسًا بشقاء الإنسانية، وترأس فى هارفارد النادى الاشتراكى، وكرس بعض وقته للمساعدة فى مركز العناية بالمعوزين. ثم اكتشف أنه لا يصلح لهذا ولا لذاك، فكانت حياته فيما بعد توازنًا بين الاجتهادين.

بدأ حياته الصحفية فى جريدة تقدمية بمدينة بوسطن. وعندما انتقل إلى نيويورك عاشر التقدميين السياسيين، والفنانين من الطبقة الثرية التى تغامر فى الحياة الاجتماعية دفاعًا عن قضايا العصر. فخرجت من هذا الوسط مجلة أسبوعية متواضعة حجمًا ومظهرًا. ظهر أول عدد منها سنة ١٩١٤، وعاشت إلى اليوم، وهى «الجمهورية الحديثة» تدافع عن السلام دون التسليم. وبمعنى آخر، كانت مجلة ليبرالية تميل إلى اليسار. وفى عام صدورها ذاته، تأهب ليمان لقضاء بعض الصيف فى سويسرا مارًا بألمانيا..... وإذا به يفاجأ بخبر تقديم ألمانية الهوهنزوليرن إنذارها إلى بلجيكا، وإقفال الحدود نذيرًا بالحرب. وفى عام ١٩١٦ - وقد قامت الحرب الضروس الأولى - نادى فى «الجمهورية الجديدة» بإعادة انتخاب الرئيس وودرو ويلسن عن «الحزب الديمقراطى». ودرجت المجلة على مؤازرة ويلسون مدى العامين التاليين. وإذ كان ليمان على صلة وثيقة بالكولونيل هاوس، القوة الخفية وراء الرئيس ويلسون، فقد أوفده هذا إلى باريس فى مهمة دعائية. وهناك كلفه هاوس بإعداد مشروع بلاغ يقدمه ويلسون إلى الحلفاء.

وكان هذا هو الأصل فيما عرف باسم «نقاط ويلسون الأربع عشرة»، ومن بينها نقطة ارتكاز دولية للحركة الوطنية المصرية «ثورة ١٩١٩». وإذا بالحلفاء الكرام بقيادة بريطانيا الظافرة، يجرون رئيس الولايات المتحدة إلى الاعتراف بالحماية البريطانية المبسوطة على مصر. ويدرك لبمان عندما يتغلب النمر كليمانصوه، والثعلب لويد جورج على ويلسون «الملائكى»: إن المغامرة على صلح عادل بين المتحاربين.. خاسرة، فيعود إلى المجلة ليكتب ضد توقيع معاهدة فرساى.

ينفصل لبمان عن «الجمهورية الجديدة» لينخرط فى سلك محررى صحيفة «الويرلد نيوز»، التى تسقط عام ١٩٣١ أمام حملات «النيويورك تايمز» و «النيويورك هيرالد» و «التريبون»، فيلتحق بهذه الأخيرة، ويبقى بها مدى ثلاثين عامًا يحرر مقالين كل أسبوع بعنوان ثابت «اليوم وغدًا» يطالعها مئات الآلاف من القراء فيما يعبر به الصحفى النابه عن الوقائع والرجال ذوى النفوذ وقد قفز دون جهد إلى الصفوف الأولى من الصحفيين ذوى الرأى الناصع الرصين. لم ينخدع بنفوذه، وبقوة «المعلق على الرجال والأحداث»، والمعلّق على كلامه، ولكنه لم يفقد الأمل فى اعتباره ناصحًا سقراطيًّا ديموقراطيًّا لزمانه، وأهل زمانه.

كان لبمان أولا وقبل كل شىء ابن عصر «التنوير»: (بعقلية فرنسية، وتمسك جاد بإعمال الرأى)، كما كتب عنه صديق. وكاتب آخر يصف أسلوبه «بالتحفظ الدقيق المتعقل، متجنبًا إثارة الفزع... لأن لبمان لا يدخل المعارك بل يراقبها عن بعد، من موقف الموضوعية». يقول بأنه لا يعالج الشئون السياسية إلا بوجه عام. وليس مستعدًا لرفع راية، والاندفاع بها إلى المعركة. سر نجاحه فى ربع القرن الأخير أنه يعمل على

ضوء الحجا فى معالجة المسائل الخارجية والداخلية، لا يتكلم عن شخصه، ولا يعنى بالأمور الشخصية، ولا بالخبطات الصحفية والتنبؤ. كلامه يبنى على معلومات وثيقة. وهو القائل: «ليس كافياً أن ننقد سياسة رجل عام، يجب علينا أن نتصور أنفسنا مكانه، فى جلده، لأننا بدون مواجهة الحقائق التى واجهها ويواجهها، لن نصل إلى غير ما يشبه القائل: أنا أحسن منك.

كتب لبمان فى آخر الثلاثينات: «لتقوية دوام الجمهورية فى عصور الحروب والثورات، واجب وضرورة أن نحافظ على اقتران الحرية، كما مارسها جفرسون، والسلطة، التى طالب بها هاملتون. وليس أضر بنا من عدم الإحساس بهذين المبدأين: الحرية التى لا تفترق عن السلطة، وعشق الحرية. مبدآن يدفعانا إلى سن قوانين تدافع عنها، وتقومها. كما أن التوجس من الحرية يجرنا إلى إنكارها وخنقها. إنما الحرية فى حماية القانون المرضى عنه من الناس هى التى تعمر طويلا».

هذا كلام يقوله صحافى عاصر ١٢ رئيسًا للولايات المتحدة «من مجموع ٣٨ رئيسًا منذ «جورج واشنطن». تلقى دروسه الصحفية من أسرار حياة أغلبهم، وكأنه هدف إلى أن يصبح المفكر السياسى لعصره وقد كان، بشهادة أكثر من مؤرخ.

حيا الرئيس جيرالد فورد ذكرى الفقيد فى برقية التعزية قائلا: «أمريكى عظيم قام بدور كبير على مدى نيف ونصف القرن، مبرزًا فى تنمية المساجلات العامة، وفى بلوغ مستوى جديد للصحافة».

بعد عام ١٩٣٨ انتقل وولترلبمان إلى واشنطن ووسع أفقه. وحينذاك بدأنا هنا بالتعرف على الرجل من قراءة بعض كتاباته فى شتى القضايا،

حيث أصدر كتابه «سياسة الولايات المتحدة الخارجية بعد الحرب العالمية الثانية» ينادى فيه بالتبعات التى تتحملها بلاده أمام العالم. وفى كتابه «الحرب الباردة»، نادى بأنه لاسلام دون جلاء كافة الجيوش عن المانيا.

ويتساءل الصحفى الفرنسى جان لاكورتور: «هل كان التزمت البيوريتانى الأمريكى يجد مثالا لتجسيد وظيفة الناقد السياسى مثلما وجد فى ذلك الفحص الدقيق الذى دفع بصحف «الواشنطن بوست» و «النيويورك تايمز» و «اللوس أنجيليس تايمز» إلى الكشف عن أكاذيب الرئيس نكسون، وعن العصابة التى فرضها على الشعب الأمريكى».

ويشهد لاكورتور بأنه، وقد عرف لبمان شخصيًا منذ عشر سنوات، بأن الرجل لم يضعف مرة واحدة، ولا تقاعس فى كفاحه ضد طغيان الإمبريالية الأمريكية... قال، وقد بلغ الثالثة والثمانين، فى آخر لقاء بمنزله مع الصحفى الفرنسى: «إن الفساد المحكم الحلقات حول هذا النكسون، أسوأ من كل مارأيت فى حكم الأحد عشر رئيسًا الذين عرفتهم «كان الحديث قبل تولى فورد». أن روح الديمقراطية فى خطر. والحق أننا لم نحظ بعد فرنكلين روزفلت برياسة ذات جدارة. لقد قسوت على آل كنيدى، بالرغم من ثراء أفكارهم، ولكن الأهم والأساس فى الحياة العامة ليس الألمعية، وإنما هو القوام الخلقى».

نموذج من أزمات المجتمع الأمريكى ووسائل إصلاحها

نحاول فى بلادنا معالجة أزمات المجتمع المصرى بصدق نية، وأشعر أن سلامة الوسائل، وأن تعثرت، فإن النوايا الصادقة لدى المحكومين والحاكمين، واصلة بنا إلى بر السلامة والسلام، على قواعد أمينة آمنة، أولها تحرير الأرض، وآخرها تنظيف أسطبلات «أوجياس» من المرتشين، والمتسيبين، والمستهترين، وفاقدى الكفاءة، ضعاف القدرة إلا على خدمة أنفسهم.

ولقد حاولت فى هذه الفصول، نتاج رحلتى الخاطفة، النفاذ إلى المجتمع الأمريكى لا عن طريق دراسة مكانية، ولكن بتناول تكوينه التاريخى، منذ الهجرات الأولى فى القرن السابع عشر. وقد اتضح لنا أن «الآباء المؤسسين» للديموقراطية الأمريكية، وللوحدة الفيدرالية، كانوا متفتحى الأعين على التعليم والتربية، والممارسات الاجتماعية، كأساس صحيح متين فى ظل دستور ثابت، وقابل للإضافات التى تفرضها سنن التقدم، وتحت رقابة قانونية من محكمة دستورية عليا. وأن قيام المجتمع على هذه القواعد فيه كل الضمان للحرية التى لا تتجزأ، وللديمقراطية الهادفة إلى المساواة، على حد قول هوبهاوس (السياسى البريطانى): «الحرية بدون المساواة اسم فخيم الرنين، زرى المضمون». ومن هنا جاء التوكيد فى النصف الثانى من القرن الحالى على النواحى الاقتصادية والاجتماعية التى يدور فيها الكفاح من أجل الحرية. ومما حفظ للنظام اللبرالى حياته هو

بعض العناصر التى مكنته من إقامة مجتمع متفتح، وحياه هانئة نوعًا. وبيان هذه العناصر:

١ - باب الترقى المفتوح للكفاءة والموهبة.

٢ - المبدأ الذى لا يهدف إلى المساواة بذاتها، ولكنه يفتح الباب على فرص متساوية أمام المجتمع.

٣ - إرساء القرار على الموافقة العامة.

٤ - ازدياد الطمأنينة الاقتصادية بدون تضحية بالحرية.

٥ - تحويل تيار يمكن أن يثير بطريقة ما نزاعًا اجتماعيًا طبقيا، إلى نزاع سياسى فحسب.

وأخيرًا: المبدأ الذى يعتبر كل فرد حاملا فى طيات نفسه قوة مكنونة يجب إعطاؤه الفرصة لإظهارها [الموسوعة البريطانية].

وأهم ما اعتور الديمقراطية الأمريكية من عقبات، وأشدها خطرًا: شراسة الرأسمالية التى استفحلت فى مجتمع القرن التاسع عشر، استفحالا يفوق ما حدث فى غربى أوربا نتيجة للثورة الصناعية - ولعل السمعة السيئة للمجتمع الأمريكى مصدرها الصورة البشعة التى ذاعت فى العالم المتحضر عن مساوئ ذلك المجتمع، وخاصة ضراوة رأس المال، وشركات الاحتكار لأغلب حاجات الشعب.

ومن المفيد لنا أن نستعرض صورة سوداء للمجتمع الرأسمالى فى الولايات المتحدة فى السنوات التى تلت انتهاء الحرب الأهلية، وخاصة فى الربع الأخير فى القرن الماضى، وكيف واجهها المصلحون من رجال السياسة والاجتماع، ومن الكتاب والشعراء والفنانين حيال الهياج والمظاهرات التى قام بها الشعب من الفلاحين والعمال.

وصورة الكشف عن العلل التى تنخر كالسوس فى كيان الديمقراطية، استغرقت حوالى العشرين عامًا من ١٨٩٤ حتى تولى الدكتور وودرو ويلسن رياسة الولايات المتحدة فى ١٩١٣. وقد بدأت بخطيب مدره من أعضاء الحزب الديمقراطى، كان أقواهم كفاحًا، ومع أنه سقط فى كل انتخابات دخلها (لعضوية الكونجرس أو لرياسة الجمهورية) فقد ظل ثلاثين عامًا هو الرائد المفوه، والزعيم المؤيد للحزب الديمقراطى.

اسمه وليم برايان، شاب من ولاية نبراسكا، أخذ يحرض حزبه على الانضمام إلى ما عرف «بالتنظيم الشعبى». لم تر السياسة الأمريكية من قبل شيئًا شبيهًا بما قام به هذا التنظيم من هياج اجتاح السهول ومزارع القطن. وصفه شاهد عيان بأنه كان فى تعصبه لمبادئه شبيهًا بالصليبيين. ينهى أفراده أعمالهم اليومية ثم يتجهون إلى مكان الاجتماع، إنما يكون هذا المكان، شونه أو مدرسة، ليستمع إلى مواطنة من كنساس تطلب من المزارعين «أن ينتجوا غلالا أقل، ويشعلوا نار جهنم على الظالمين... إن وول ستريت (حى الأعمال بنيويورك) هو المتملك للبلاد.. لم تعد الحكومة للشعب ولا هى من صميم الشعب، أو من أجل الشعب. بل هى حكومة وول ستريت، من صميم وول ستريت، ومن أجل وول ستريت. قوانيننا خرجت من نظام يحسن هندام الأوغاد، ويلبس النزاهة والشرف أحقر الأسمال». ويعلن المزارعون: «إن تاريخ الولايات المتحدة فى الثمانية والعشرين عاماً الماضية، هو سلسلة إساءات، وظلم، واعتداء، ولا مثيل لها فى تاريخ العالم. وكل القوانين تهدف إلى غرض واحد، هو إقامة أرستقراطية المال على خرائب ما كان فى الماضى أمريكا الحرة».

كانت الحالة سيئة عام ١٨٩٢، وتزداد سوءًا مدى عامين، ويضرب

عمال مصانع برلمان، وتتجه مسيرة العمال المتعطلين إلى العاصمة، وتنهار أسعار المحاصيل: القطن والغلال، وينضم كثير من أعضاء الحزب الديمقراطى إلى «التنظيم الشعبى».

أثار الشعب قضية التضخم النقدى، فى مقابل الانكماش. وكان المحافظون منحازين إلى جانب الانكماش، والثائرون ينادون بالتحرر النقدى، وضرب السكة الفضية إلى أقصى ممكناتها، بصرف النظر عن أثر ذلك على معيار الذهب. فأى ضرر من معيار الفضة؟ أجابت الرجعية: الدولار الفضى فاقد النزاهة، وهو صديق الفقراء، على حين أن الذهب هو مال الأثرياء، ونقد وول ستريت. وكان برايان هو قائد الحملة ضد الذهب، والانتصار للفضّة، قال: «إذا خرجوا إلى العراء يدافعون عن معيار الذهب، فسنحاربهم بعنف، ووراءنا جموع الشعب المنتج: عمالا ومزارعين، وجوابنا طلبهم لمعيار الذهب: لن تكسبوا على جبين العمل هذا التاج من الشوك، لن تصلبوا البشرية فوق صليب من ذهب».

وهكذا ظل برايان مدى عشرين عامًا تحت أضواء السياسة، بقوامه المعتدل، وشعره الفاحم وعيونه السوداء المتقدة، ولسانه المعسول، وذكائه وبسالته، بالإضافة إلى إيمانه بأن «صوت الشعب من صوت الله». ومع أنه كافح فى معركته الانتخابية وجاب أميريكا طولا وعرضًا مرشحًا للحزب الديمقراطى، فقد فاز عليه مرشح الحزب الجمهورى وبمليون صوت.

ولكن الديموقراطيين كانوا فى نهاية المطاف هم الجبهة المنتصرة التى غيرت مسار التاريخ الأميريكى.

تلك كانت حقبة الإصلاح والتقدمية، دخل حومتها السياسيون: برايان والرئيسان تيودور روزفلت ووودرو ويلسن. والفلاسفة: وليم

جيمس ورويس وجون ديوى. والاقتصادى الكبير فيبلن، والأدباء والكتاب: وليم، وهاولز، وفرانك نوريس وتيودور درايزر، كلهم يدافعون عن حصون الديموقراطية ويتحدون أعداءها.

فالبلية لم تقتصر على سوء حال الزراع والعمال، ولا على الاقتصاديات وحدها، بل على كل صور المجتمع الأمريكى. ولأن «عهد الحياة» فى هذا المجتمع لم يتحقق، فقد كان المنتظر لمستعمرى العالم الجديد إقامة مجتمع الحرية والمساواة للجميع، ونجح الآباء المنشئون دون شك فى تحويل حلمهم إلى حقيقة.

وهؤلاء أحفادهم رجال تهيأت لهم الفرص لإنشاء جنة على الأرض. ألم يصف السياسى والاقتصادى والفرنسى تورجو مطالع الشعب الأمريكى بأنه «أمل الجنس البشرى»؟.

خاب الأمل، وهذا على الرغم من أن الأمريكان كانوا أيسر حالا من معاصريهم الأوربيين. بيد أن نظرة المصلحين منهم كانت: إنما نحن أسوأ مما كان المتوقع لنا نعم كانت الانجازات المادية فى الصناعة والزراعة والمناجم عظيمة، ولكنك إذا استدرت ببصرك إلى الإنجازات الاجتماعية والثقافية، نزل بك إلى الحضيض الذى تردّت فيه.

هذه لم تكن مجرد أعمال شقية، ولا محاولات من الأقوياء لهدم الديمقراطية فحسب، وإنما جاء ذلك أثرًا من آثار العلم وتطبيقاته فى الصناعة التى سبقت وتقدمت خطوات على العلوم الاجتماعية وعلى الجهاز السياسى. حدث هذا فعلا عندما عجزت الدولة عن التحكم فى القوى التى أطلقتها الصناعة على المجتمع، وكان ذلك صحيحًا فى السلوك الأخلاقى بعد ما انزاحت المسئولية الفردية أمام شركات المساهمة. وفى

الميدان الاجتماعى حالما عجزت تقاليد المجتمع الريفى المتجانس عن تطبيقها على مستلزمات حياة المدن فى مجتمع غير متجانس.

والنمو ذاته أنبت مشاكل عدة، فالمزارع اتسعت وتضخمت أعمالها حتى تعدت حدودها المعهودة، والمهاجرون تجاوزوا القدرة على استيعابهم، ونمت المدن بسرعة لم تواكبها حركة الإسكان، وإنتاج المصانع أكثر من ممكنات الاستهلاك، ودنيا الأعمال تضخمت إلى حد التعجيز عن وعيها وإدارتها، وأثرى بضعة رجال ثراءً فاحشًا وضعهم فى حيرة عما يصنعون بأموالهم المكدسة، ولم يجد المجتمع طريقة لتخفيف أثقالهم.

وما أقل بين المصلحين من يملك القدرة على وعى كل هذا. فلم يروا غير الجوع والظلم وضروب الفساد، ومشاكل الأرض، والعمال، والنساء والأطفال. لهذا تركز هَمّ المصلحين فى إزالة الأحياء المكتظة بالفقراء (صلامز)، وفى تقويم الحياة السياسية، والضرب على أيدى التجمعات الاحتكارية (طراصطس)، وسوء استخدام الثروات الفادحة، وقاوموا تشغيل الغلمان، وسوء معاملة العمال فى المصانع الصغيرة، ودافعوا عن الهنود الحمر باعتبارهم سكان الأرض الأصائل، وعن سود أفريقيا الذين جلبوا رقيقاً وعاشوا عبيدًا للجنس الأبيض، وعن سمر الجزر فى البحر الكريبى. وأداروا عجلة الإصلاح الحكومى بتنظيم الاستفتاء الشعبى، ومنح حق التصويت للنساء، وجعل الانتخابات على درجة واحدة. وانقذوا الغابات المهددة بالزوال تحت معول الإنسان، وحافظوا على مصادر المياه، وعملوا على تجميل المدن. ومن الأمور الظاهرة قيام الجمعيات الخيرية بالمئات، وانتشار الكتب التى تنعى الحال وسوء المال.

وهاجمت الصحف والمجلات شركات الاحتكار من أمثال «ستاندارد

أويل» وشركات اللحوم، وشركات المواصلات بأنواعها داخل المدن وخارجها، وكشفت عن تاريخ الثروات الضخمة وكيف تكونت.

وانصرف الروائيون عن قصص الغرام، واللون المحلى إلى القصص الاجتماعى (درايزر وفرانك توريس)، ونزل الأساتذة عن أبراجهم العاجية ليكافحوا فى سبيل حل المشاكل الاجتماعية (فيبلن ولستر وارد)، واكتشف الوعاظ الدينيون المعانى الاجتماعية للإنجيل، وأثاروا ضمائر المصلين بوصف فساد المجتمع، بل وأرهبوهم بالتساؤل، عما يحدث لو نزل المسيح اليوم إلى شيكاجو.

لم يك كل غريبًا على طبع الأمريكى، وهو من أقدر الشعوب على الاعتراف بأخطائه وشجب ذنوبه. لم ينس أبدًا «آباءه المهاجرين» ثاروا على الحيف والتعصب المذهبى، وآثروا النزوح عن وطنهم (بريطانيا)، وأن أبناء هؤلاء فى نيو إنجلاند أشعلوا نار الحرب على الدولة الأم، ولم يلقوا السلاح حتى أجبروا البريطانيين على الجلاء. وهكذا تتكون الأمم الجسور عندما تنصهر بالكفاح فى الداخل والخارج، وتغدو أسماء أبطال الوطنية كواكب سيارة تسطع فى قبة التاريخ: جورج واشنطن، وتوماس جفرسون، وبنيامين فرنكلن والكسندر هاملتون، وصمويل آدمز، والإنجليزى نصير الحريات شرقاً وغرباً: توماس پين.

عن التعليم والجامعات الأمريكية

« وأهم ما يعنينا هو تعليم الشعب ، لأنى شديد الاقتناع بأن الاعتماد على حسن إدراك الشعب ، هو ضمان المحافظة على قسط هام من الحرية » .

الرئيس الثالث للولايات المتحدة :
توماس جفرسون

زرت الجامعات (ومقارها تعرف فى الولايات المتحدة باسم الكامباس) : هارفارد (كمبردج بولاية مسّاتشوستس) ، برنستون (بولاية نيوجيرسى) ، يوتاه (صولت ليك سيتى بولاية يوتاه) ، واشنطن (سياتيل بولاية واشنطن) ، كاليفورنيا – بيركلى (سان فرنسسكو بولاية كليفورنيا) ، ومتحف أسميثونيان للعلوم ، وتاريخ المخترعات والإنجازات التكنولوجية بمصاحبة دانيال بورستن ، المؤرخ الكبير ، ومدير سابق للمتحف الشامخ بواشنطن د. ك. ، ولم يكن الوقت ليسعفنى والأساتذة المضيفين بأكثر من المرور والدوران بالكامباس مع التركيز على المكتبات ، وهذه فى ضخامتها وتنسيقها ، وتبويب محتوياتها ، وقاعات المطالعة للطلبة ، وأخرى للتخصص والبحث ، وفى جمال بنائها وأثاثها وإضاءتها ، مفخرة من مفاخر الجامعات الأمريكية . وقد كان مضيفى ورائدى بجامعة يوتاه هو صديقى القديم ، وزميلى بجامعة الإسكندرية الأستاذ الدكتور عزيز سوريال عطية ، مؤرخ العصور الوسطى . قضينانيفا وساعتين فى قسم

الدراسات الخاصة بالشرق الأوسط عربية وأجنبية. ويشهد الجميع هناك بأنه منشئها، كما تشهد صورته الزيتية الكبيرة فى ردهة المكتبة. وشاهدت الملاعب، ومساكن الطلبة العزاب والمتزوجين، ونوادى الاجتماع، وقاعات الدرس والمحاضرة، وصعدت إلى أعلى البرج بجامعة كاليفورنيا ببيركلى، فأشرفت على مبانيها بعامة، وهى مجتمعة فى إنفساح تحيطها، وتتخلل بلوكاتها الحدائق ببسطها السندسية، وأشجارها السامقة.

كنت أتحسر على ضيق ذات اليد بجامعاتنا، مما أدى إلى القصور فى مستلزمات الحياة الاجتماعية والترفيهية لهم. وأقسى من هذا ما جرى على جامعاتنا - أيًّا كانت الأسباب والعلل - من تعثر وتقهقر. ومما حزنت له نفسى مطالعة تقرير لمسئول جامعى كشف لى من المصاعب التى يلاقيها بعض المبعوثين المصريين للالتحاق بكليات ومعاهد بدأت تشكك فى قيمة درجاتهم الجامعية الأساسية، وتشكو ضعفهم اللغوى، فتفرض عليهم الاختبارات إعدادًا لقبولهم، بعد أن كانت جامعات أوربا وأمريكا - حتى عهد غير بعيد - تعترف رأسًا بدرجات الليسانس والبكالوريوس والماجستير، وتسمح لمبعوثنا بالمضى فى التحضير للدكتوراه.

بالولايات المتحدة، حسب الإحصاء الرسمى عن عامى ١٩٥٦ - ١٩٥٧ : ١٨٨٦ معهداً للتعليم العالى. ومن هذا العدد ٢٢٨ معهدًا يحمل اسم «جامعة» ويبدو أن ثلث هذا العدد مدارس عليا (كوليج) فحسب. ويكون عدد الجامعات الجديرة بهذا الاسم ١٥٠ جامعة. ويصرف على مجموع معاهد التعليم العالى فى سنة الإحصاء حوالى ٢ مليار ونصف دولار (٢,٥٠٠,٠٠٠,٠٠٠) لا تدخل فيها تكاليف امتداد المبانى، ولا التكاليف غير التعليمية. وميزانية جامعة تشيكاجو وحدها حوالى ٥٠ مليون دولار.

وأغنى مكاتب الجامعات : هارفارد : ٦ ملايين مجلد ويبل : ٥ملايين مجلد .

ولقد أتصور وأنا أنقل هذه الإحصاءات أننى أصبت بعدوى الأرقام فى أمريكا ، علماً بأن الأرقام لا توصلنا إلى شيء هام . والهام فى موضوعنا هو قصة التعليم بأنواعه منذ بدء تكوين الأمة الأمريكية ، وهذه أعجوبة من أعاجيب هذا الشعب الحديث ، الذى بدأ خطاه الحضارية منذ قرنين من الزمان ، بدأ من العدم فوق أرض شاسعة بغاباتها وآجامها وصحاريها وجبالها وأنهارها وبحيراتها . أرض كانت تسكنها قبائل بدائية رحل ، استطاع المهاجرون الأوائل ، ومن لحق بهم من مختلف الأمم أن يقيموا أمة موحدة فيدراليا لم تخفق أجناسها ومللها ونحلها المضى فى تحقيقها . وفى المركب الصعب لم يتوقف التقدم الحضارى الذى أبلغها أسمى المراتب ، وجعل منها الدولة الزراعية الصناعية ، والعلمية الأدبية الفنية ، فى وقت قصير بحساب الأمم .

ونبدى هنا ملحوظة – ليست من محض تفكيرنا – وهى أن دولا حديثة كالبرتغال والنرويج ، أو ألمانيا أو إيطاليا ، تكونت الأمة فيها قبل الدولة بالمعنى الحديث . أما تكوين الولايات المتحدة فقد بدأ بالدولة قبل الأمة .

وهذه واحدة من غرائب استعمار العالم الجديد . فقد تبلورت أمريكا إداريًا وسياسيًا قبل أن تحقق وتحصل العناصر التقليدية لبناء القومية . فالقومية لا تكتمل إلا حين يجمعها تاريخ مشترك ، وشعر ، وأغان ، وقصص وأساطير .

فى البدء كان التعليم ، وهو موضوعنا . قال توماس جفرسون الرئيس الثالث فى التاريخ الأمريكى : « وأهم ما يعنينا هو تعليم الشعب ، لأنى قوى الاقتناع بأن الاعتماد على حسن إدراك الشعب ، هو ضمان المحافظة

على قسط هام من الحرية». وأكد جون أدامز الرئيس الثانى «١٧٩٧ - ١٨٠١» ضرورة «تربية كافة الطبقات حتى أحطها وأكثرها عوزًا». بل كان جميع حكام الولايات على قدر كبير من إرادة التبصير بأهمية التعليم. كان حاكم نيويورك مثلا هو منشئ جامعة نيويورك، وحاكم بنسلفانيا عنى بإنشاء مدارس البنات، ومدرسة طبية. واعتنى نوح وبستر (صاحب القاموس الأمريكى الأول) بالتعليم العام، ألف كتب المطالعة والتاريخ ووضع القواميس. والرئيس جفرسون فى الحق كان أهم شخصية من بين «الآباء المنشئين» عناية بالتعليم بدأ بإنشاء مدارس التعليم العام لكل أطفال الولاية وهو مؤسس جامعة فرجينيا، ومكتبة الكونجرس بواشنطن - د. ك. أضخم وأغنى مكتبات العالم.

كانت هارفارد، وبرنستون، ووليام ومارى أقرب إلى الأكاديميات منها إلى الجامعات. ولكن هذا لا ينسينا أنها خرجت جنرسون، وجون أدمز، وماديسون (الرئيس الرابع (١٨٠٩ - ١٨١٧)).

التعليم العام لم يدخل فى دور التطور إلا فى ثلاثينات القرن الماضى، حين اهتم الحكام بدعوة خبراء التعليم من سويسرا وألمانيا. وكان فى مقدمة الأمريكان عناية بالتعليم العام هو «هوراس مان» من ولاية ماساتشوستس عين مديراً للتعليم سنة ١٨٣٧، وكان أول من أنشأ مدارس للمعلمين، ووضع تقاريره السنوية تفلسف مكانة هذا التعليم ووظيفته فى الديموقراطية. قال بأن التعليم يجب أن يكون عملية ديناميكية، والتلميذ يتعلم بالرؤية والملاحظة والأداء، أكثر مما يتعلم بالحفظ (ونتبين من هذا بلاغة كلمة «الصّمْ») والمعلم رائد وصديق، لا مجرد عميل تعليم. والطفل له حياته الخاصة وعالمه ينمو عقليًا تبعًا لسرعة استيعابه، وأهمية الرياضة

البدنية تتساوى تربويًا مع الكتب. واضح أن تلك آراء جان جاك روسو، نفذها عمليًا بستالوتسى فى سويسرا، وفرويل فى ألمانيا. وهب الأمريكان لتنفيذها.

ومدارس المراحل الأولى نمت من تسع مدارس فى عصر التبعية البريطانية، إلى أكثر من عشرين فى مطالع القرن الماضى، وواصلت النمو والازدياد. ولكن أغلبها كانت فقيرة فى مصادر تمويلها، وفى مكتباتها. الواضح فى مدرسيها إن إخلاصهم لواجبهم يسبق قدراتهم التربوية. والبرامج تعنى أول ما تعنى بالأخلاق والتربية القومية التى تعمل على شحذ الإحساس بالمسئولية الاجتماعية والوطنية.

تقدم التعليم العالى فى النصف الأول من القرن التاسع عشر فى اتجاهات ثلاثة:

أولها: نمو الجامعات التى تنشئها وتتولى أمورها حكومات الولايات، وكان ذلك أكثر ظهورًا فى ولايات الغرب، وخاصة فى أوهايو وميتشيجان.

وثانيها: الاهتمام بإنشاء المدارس العليا للبنات.

وثالثها: التحلل من قيد نظام الكليات الأربع، أساس الجامعات الأوربية التقليدية (كليات الآداب والعلوم والقانون والطب). لأن اتجاه شعب الولايات المتحدة كان من أول أمره، واستمر فى التركيز على متطلبات الديموقراطية الجديدة بإنشاء المعاهد الزراعية والهندسية «وبلغ التحلل ذروته عام ١٨٦٢ عندما قررت الحكومة الفيدرالية (أى المركزية) أن تقطع الولايات الأرض اللازمة لإنشاء معاهد عليا للزراعة والهندسة.

يجب لفهم مقاصد التربية والتعليم فى الجمهورية الجديدة التنبيه إلى أن «الآباء المنشئين» كانوا مؤمنين بأنه لا نجاح للديموقراطية، ولا حياة

للحرية، بدون نشر التربية والتعليم على أوسع نطاق. فماذا يرجى من الانتخاب العام إذا كانت أغلبية الناخبين لا تفقه معنى الحياة الديمقراطية، بله قواعدها.

دعوة مستجابة فيما أرجو
فصل انتقالى (١٩٧٧)

تقدرون وتضحك الأقدار. كنا نعد لقضاء أسبوعين حول «شم النسيم» بالإسكندرية، فإذا بى أتلقى إشارة من الأستاذ عبد المنعم الصاوى، وزير الثقافة والإعلام، تدعونى إلى حضور افتتاح معرض توت عنخ آمون بمدينة شيكاغو، تلبية لدعوة جامعتها القائمة مع هيئات أخرى بتنظيم هذا الحدث الفنى الكبير، فى أعظم مدائن الولايات المتحدة بعد نيويورك. أنعم وأكرم بالدعوة، وفجائيتها. أثارت فى مخبآت نفسى «دعوة إلى الرحيل» للشاعر الفرنسى بودلير لحنها الموسيقى دوبارك:

«يا بنيتى، ياأختى: احلمى بحلاوة الحياة هناك سويًا، بالبلاد التى هى صورة منك:
«هناك الترتيب، والترف والجمال، وهناك الهدوء، ومباهج الحياة».

تغلبت شيكاغو، ونيوأورلينز، ونيويورك على الإسكندرية، فمن الطابق السادس فى هذه الأخيرة إلى الطابق الثالث والعشرين بفندق «ريتز - كارلتون» ومن عروس بحرنا، إلى عروس بحيرة ميتشجان، ثم إلى دلتا المسيسبى.

عدت بعد رحلة الأسبوعين مليئًا بانفعالات الفن، فن جدودنا الأقدمين، وانفعالات التجدد رؤية واتصالا بكرام الداعين.

تذكرت كل هذا لأسجله على هذه الصفحات، ولكننا فى شهر مايو من سنة ١٩٧٧، ختام العام العشرين من حياة «البرنامج الإذاعى الثانى» وللقدر أياد حانية، فقد أعادنى إلى صديق العمر توفيق الحكيم لمواساته فيما حل به من رحيل رفيقة حياته الغالية.

نسيت تمامًا فى أحزانى، ختام العام العشرين من حياة «البرنامج الثانى» (١٩٥٧ - ١٩٧٧) العمل الجماعى الصامد للأهواء والأعاصير. فقد ولد متهماً بأنه «جمعية المنتفعين» أى والله، وعاش فقيراً إلى ربه الرحمن الرحيم. تحمل فى صبر وإيمان أن يوصف ببرنامج النصف فى المائة. أنعم وأكرم يا سيدى بهذا النصف فى المائة الذى يحصى عدد آلافه بنحو عشرين ألف مستمع لا غير من أجل العاصمة وأرباضها، والبلاد القريبة، لا يسمع فى الدلتا ولا فى الصعيد، ولا فى الإسكندرية، العاصمة الثانية مهضومة الحقوق، وإذا سمع فلماما، مع مقاومة صغير عارم أنزله الشيطان من بين شواظ غضبه.

وإذا بالسيدة الأريبة، فوزية المولد رئيسة البرنامج الثانى تدعونى فى التاسع من هذا الشهر إلى المشاركة فى حفل أسرة ذلك البرنامج الشاب.

ولقد جلسنا صباح يومى هذا (العاشر من مايو) عشرة أشخاص حول الميكروفون أو تحت مظلتيه، نستمع إلى ثالثة رؤساء البرنامج الثانى: سعد لبيب، فؤاد كامل عبد العزيز، فوزية المولد تتحدث إلينا عن تلك الظاهرة العجيبة فى إذاعتنا: الباب المتفتح لكل أبواب الثقافة. وقد نعى الأستاذ يحيى حقى خطأ وصف الثقافة بالرفيعة شعارًا لمجلة

« المجلة » . ووافقته تمامًا على أن الثقافة ظاهرة حضارية ترتفع بإنسانية الإنسان عن كل أثر لبهيميته . وإذا كنا قد أخطأنا فى وصف المرحومة مجلتنا ، بل خريدتنا العذراء التى قضت فى شبابها مقصوفة الرقبة ، فقد عادت وزارة الثقافة إلى وصف جديد للثقافة ، فهى « الجماهيرية » ، فى معنى الهبوط بها إلى مصاف الجماهير . وليست ثقافة بأية حال تلك التى تنزل إلى الجماهير ، لأنها لا تعرف غير مهمة واحدة ؟ « الارتفاع بالجماهير » . وبهذا تكون « الثقافة الجماهيرية » تلك « بديل ثقافة » ، « إرزاتس » .

وهذه قائمة بأسماء العشرة الكرام الذين أضاءوا شعلة العام الأول بعد العشرين لبرنامجنا الثقافى « الحيلة » : الأساتذة الأجلاء : الدكتور زكى نجيب محمود ، والدكتورة سهير القلماوى ، ويحيى حقى ، وعبد الحميد الحديدى ، الضيوف والأصدقاء الحميمون للمحتفى بعامه العشرين .

ثم إليك قائمة بأسماء الجيل الثانى من أبطاله العاملين : السيدة عفاف المولد ، مراقبة العلوم . والسيدة عفاف حسين ، مراقبة الموسيقى ، والسادة : الشريف خاطر للدراما ، ومحمد على الشرقاوى للبرامج الخاصة ، وشوقى فهيم للفنون ، وكمال حمدى للآداب (كبير المذيعين) .

ولقد أبدى الجميع أسفهم لغياب الأستاذ الكبير فتحى رضوان ، أول وزير للإرشاد القومى ، عاد إلى تلك الوزارة ، فلم يغادرها إلا وقد تحولت إلى وزارة الثقافة والإرشاد القومى . ولغياب الروائى المبدع الأستاذ نجيب محفوظ .

إذ يبدو أن خصاماً قائماً بين تليفونات مصر الجديدة والعجوزة ، وبين تليفونات الجيزة ، ودار الإذاعة والتليفزيون . فقد فشلت محاولاتى من

الجيزة، ومحاولات السيدة فوزية المولد من مكتبها بالدور السادس.

وضح من نقاش الحاضرين، فى الندوة الاحتفالية. أن إنشاء البرنامج الثانى عمل جماعى يعتبر نموذجًا يحتذى. لم يكن نزوة، ولا مجرد خاطر طارئ، بل كان إنجازًا اجتمعت له عناصر النجاح. فقد تحول الوزير فتحى رضوان من فكرة «الدعاية» متخفية باسم «الإرشاد» إلى فكرة الثقافة، حين قرر إنشاء «مصلحة الفنون» واسند رياستها إلى الأستاذ يحيى حقى يعاونه الأستاذ نجيب محفوظ، والمرحوم عبد الرحمن صدقى.

كانت الفكرة موضوع لقائنا. فهو لقاء طبيعى وأصيل، لأننا كنا فى مجموعنا لا نكره شيئًا كرهنا لدعاية الطبل الأجوف، بدق وحده كالمجنون.

بيننا مجموع الفكر والفن والعلم والأدب، ممارسة وعملا، خلقًا ونقدًا، هو الذى يدعو لأهله وبلاده الجديرة بتاريخها التالد، وتطورها الطريف.

ثم كانت واقعة تأميم قناة السويس، وعودتها إلى أهلها انتصارًا باهرًا على غلاة الاستعمار البائد الكريه.

وليكون معنى الثقافة «واضحًا للأفهام، خالصًا مميزًا عن السياسة» نعترف بأن نموذج «البرنامج الثانى» كان «البرنامج الثالث» فى بريطانيا، إحدى الدول التى شاركت فى الاعتداء على مصر عام ١٩٥٦. لأن شئون الفكر والفن والعلم والأدب أرفع من أن ينالها نعى الناعين. فإن كان المستمر إيدن، والمسيوجى موليه يمثلان «السياسة»، فإن أهل الثقافة فى البلدين العظيمين كثر، انحازوا إلى جانب الحق والعدل، بل وجد حتى فى ميدان السياسة عظماء من الشرق، ومن أقصى الغرب نعوا على الدولتين الكبيرتين الشطط والبجاحة. فأعادوا الحق إلى نصابه.

لا عجب إذن أن يجيء عطاء ١٩٥٦ - ١٩٥٧ بتأسيس الفن الشعبى وتصنيفه وإعادة المسرح المصرى سيرته الأولى، وإنشاء الأوركسترا السمفونى والكورال، والشروع فى الإعداد لأكاديمية الفنون بمعاهدها الخمسة. وكان عام ١٩٥٧ إلى هذا هو عام «المجلة» وعام «البرنامج الثانى» ظهيرًا، وداعية إلى الإتقان والتعميق والجودة وقد قيض لهذين العملين العظيمين، من الوسط الإذاعى والأوساط الأدبية والفنية والعلمية أهله، وضيوفه، أن أقيما صرحًا لحرية الفكر بأصدق معانيها.

فإذا كنا نحتفل بمضى عشرين عامًا على إنشاء «البرنامج الثانى» فإننا نود التذكير بأن ثورة ٥٢ بلغت فى ذلك التاريخ ذروتها. وإذا بلغ العمل الاجتماعى الذروة فليس أمامه إلا طريق السلامة فى الاحتفاظ بمستواه، أو طريق «الصدامة» بالنكسة والنكوص.

والتاريخ وحده سوف يؤكد لنا معنى ليس جديدًا فى تاريخنا منذ العتاقة. وهو قدرة هذا البلد ومقدراته، فى النهوض من العثار والكبوة عندما يضل الطريق، فيهوى بنا إلى حضيض اليأس. وها نحن نحتفل اليوم وغدًا وما بعد الغد بثورة ١٥ مايو ١٩٧١ تصحيحًا لمسار ثورة ١٩٥٢. وأحسبنى لا أغالى إذ أرانا مرة أخرى فى الطريق الذى أخرج منذ عشرين عاماً تلك المنشآت الغالية. وحتى إن كانت تلك الأعمال قد تمت فى فترة لم تتمتع بكامل الحرية، فمن باب أولى يحق لى تصور نهضة اليوم، عندما تغدق علينا شمس الحرية بكامل أشعتها، ويجلو كابوس الاحتلال عن صدورنا، وأرضنا، تعنى استئناف السير بمصر فى مدارج حضارة بدأتها فى النصف الثانى من القرن الماضى، واستأنفتها بعد ثورة ١٩١٩، ثم نفضت عنها فى ثورة ١٩٥٢ الملك العابث، وعرشه المتهاوى. وحققت ثورة

التصحيح فى مايو ١٩٧١ القضاء على الطواغيث المخربة، وبهذا تحقق العبور من ظلام الهزيمة إلى نور النصر فى أكتوبر – ١٠ رمضان المجيد.

الحق أنى أكتب هذا المقال دعوة للقراء أن يستمعوا إلى «البرنامج الثانى» فى الندوة التى سجلتها المجموعة الصادقة فى يوم ١٠ مايو، احتفالا بعيده العشرينى وسيدرك من لم يتمرسوا طوال هذه السنين بطريقته وخط سيره، أن البرنامج الثانى قمين بأن يسمى «مجمع الثقافة».

فما أكثر ما سأل السائلون عن معنى «الثقافة» وكنت أنهى إجابتى بأن «البرنامج الثانى» هو التعريف العملى بالثقافة، وذلك بعد أن أوضح للسائلين أن الثقافة ليست علماً ولا تخصصًا، ولا حرفة. فلكل إنسان دوره فى الحياة، أيًّا كان هذا الدور، ومهنته أيًّا كانت تلك المهنة. إنما الثقافة هى إدراك أعلى لعلاقات المعارف العامة بعضها ببعض، عن بعد أو قرب. وتحقيقها يجىء نتيجة تفتح الذهن إلى هذا الإدراك، وذلك بمتابعة الاطلاع والوعى بكافة ما يوصف فى حياة الإنسان باللاماديات. فالتكنولوجيا مادة، ولكن إدراك أصولها عن طريق العلم البحت يخرج بها عن المادية، إلى مجال الفكر الخالص.

وإنها لفرصة ثمينة لمن يتابع البرنامج الثانى ساعة أو بعض ساعة كل ليلة (وهأنذا أنسخ هذا المقال على صوت «غادة السمان» تناقش موضوع الأدب النسائى، فأوقف الكتابة لأستمع إلى جرسها اللطيف)، أن يجتمع له فى صعيد واحد، وبث موجة إذاعية متواضعة، أشتات من المعرفة فى الاقتصاد، أو التاريخ، ومن الفن إلى الأدب القصصى الطويل والقصير، والأدب التمثيلى، والموسيقى، والنحت والتصوير، وقد يسأل سائل هنا: وما شأن إذاعة مسموعة بفن مرئى: فأجيبه: استمع إلى ندوة الفنون

التشكيلية – وكانت حتى سفرى إلى أمريكا تقام فى ليل الجمعة ، وسترى أن أهل المهنة يجتمعون فيها ليناقشوا فنهم الذى تراه معروضًا فى زمان أو مكان قريب منك إن كنت فى القاهرة ، أو الإسكندرية . ولو أن قدرات البرنامج الثانى المادية أقوى مما هى عليه لاستطاع العاملون فيه أن يتابعوا نشاط الأقاليم الثقافى ، بما يحيى مواتها ، ويشجع فنانيها وكتابها .

والفنانون التشكيليون فى ندوتهم الأسبوعية لا يعلنون عن فنهم ، ولا هم يقومون بدور تعليمى أو تربوى . إنما هم يمضون فى حوار بلغة المهنة ، خلقتها تجربتهم الحية . وبذلك تحس إحساسًا أمضى وأقوى من استماعك إلى من يحاضرك مباشرة بلغة مفتعلة فى أناقتها .

ثم من لى بذلك المستمع المستديم للبرنامج الثانى فى ليل الثلاثاء ، وقد عرف عن طريقه أدب المسرح عند القدماء والمحدثين ، شرقًا وغربًا .

وكلما اتسعت ميزانية البرنامج ، وتقوت موجته ، (وحبذا أن تنال قسطاً من الأمواج القصيرة التى تضيع فى فيافى أفريقيا) ، استطاع أن يتوسع فى مواده الأخبارية خاصة بالعلم والفن والأدب والاقتصاد والتاريخ .

واختم بتكرار رجائى إلى القارئ أن يستمع إلى ما سجلته الندوة الاحتفالية ببلوغ البرنامج الثانى سن العشرين . إنه يفتح لك باباً واسعاً ، وطريقاً واضح السمات ، إلى الثقافة معنى ومبنى .

وادى الملوك على ضفاف متشيجان

كنت أتهيأ فى الصباح الباكر لكتابة رحلتى الثانية إلى الولايات المتحدة، مدعوًا إلى حفلات افتتاح معرض توت عنخ أمون بمدينة شيكاغو على ضفاف بحيرة متشيجان، وإذا بمقال يعترضنى فى صحيفة الأخبار يتحدث عن الأباطيل، وعن الديمقراطية المنتهية إلى غوغائية فوضوية.

إلى أين يسوقنا هؤلاء الأذكياء الذين تلقوا العلم أصدقه وأكرمه، وعرفوا طريقه السوى إلى المعرفة، وأدركوا أن العقل هو الجوهر الفرد الذى وهبه لآدم وحواء، الخالق عز وجل «علم آدم الأسماء، وعلم الإنسان مالم يعلم، بل أمر الإنسان بطلب العلم «وقل ربى زدنى علماً» والعلم وسائله الحواس والاستقراء، والتحليل العقلى، كما أن وسائله التلقى بالقلب، والاستمداد من الله: فالله هو المستمد النهائى لجميع الحقائق، وذلك هو العلم اللدنى الإشراقى. ولهذا كانت العلاقة وثيقة بين العلم والتقوى، ويمكن أن أضيف إلى كلام الدكتور مصطفى محمود صاحب هذا الكلام: إن العلم الصادق هو التقوى. والعلم الكاذب لا وجود

له، لأن اسمه، ووصفه بحق هو التدجيل، والقنزحة، والتدليس.

ولقد كنت أحسب أن كلام الدكتور محمود لا يؤدى إلى التعارض بين ما يتطلبه للمواطن الصالح، وبين ما نقتضيه من هذا المواطن لبلده الناهض. فهل من بأس وعثرة فى الطريق!.

البأس كل البأس فى أن يقلب الكاتب هذه الحقائق السامية، وهى هدف العلم الذى نسعى إليه جميعًا، ويسعى إلى توصيفها بما يجعلها فى رأيه كفرًا وإلحادًا.

وهذا مصدر الخطر فى إشاعة الشك والاختلاط الذهنى، والخيال بين الشباب الذى يرد العلم السليم: قليلا منه أو كثيرًا، عندما يتلقى بقلب واجف عزاءً على أيدى أولئك (الصلاح) المصلحين: بآية من هنا: وحديث من هناك!.

لن أناقش الكاتب العلامة صاحب القلم الفياض، وسيد الاستدلال والتحصيل العقلانى، متحدًا فى روحه الصافية مع العلم اللدنى الإشراقى. فإن إعجابى بانفساح عقله، وقوة حجته، يشعرنى بالعجز عن مواجهته، وقد تلقيت من مقاله فى (الأخبار) بعنوان (لا تعلموا شبابنا الأباطيل) صدمة عنيفة يجب أن أخلص منها، قبل استئناف ما أنا بسبيله فى هذا الفصل.